

عاد هذا الشعب ليصبح عرضاً يزول، وبقي القبطان هو الجواهر - كما مر بنا؟! .
ورغم تلك التساؤلات والملاحظات، التي لا تنتم عظمة هذا الأثر الفني، فإننا نملك القول: إن الأشياء غير الرائعة تُتوالد مع الأشياء الرائعة، والعظيم يتخلق مع غير العظيم، وهذا هو الناقد (ن. غ. تشرنيشفسكي) يقول: "الرائع في الواقع ينطوي على كثير من الأجزاء والتفاصيل غير الرائعة، ولكن ألا نرى الشيء ذاته في الفن، إنما بدرجة أكبر بكثير؟ هاتوا لي عملاً فنياً لا نستطيع أن نعثر فيه على عيوب، روايات والتر سكوت ممطوطة أكثر مما ينبغي. وهذه حقيقة يعترف بها الجميع. وروايات ديكنز تكاد تكون دائماً مفعمة بعاطفة زائدة بالإضافة إلى كونها ممطوطة في أحيان كثيرة جداً. وهذه أيضاً حقيقة يعترف بها الجميع.. وروايات تيكيري تبعث فينا الملل أحياناً، والأصح القول كثير جداً ما تبعث فينا الملل بادعائها الدائم الطيبة الساخرة الشريرة" (علاقات الفن الجمالية بالواقع ص ٩٤ - ٩٥). فكم كان جميلاً إذن أن يكون الكاتب (ناصر) قادراً على الحذف، كما هو قادر على الإثبات...! ولكن يبدو أن في الأمر سرّاً أشار إليه (أبو تمام) منذ ألف ومنتى عام تقريباً، عندما شبه أشعاره بأولاده لا يشتهي أن يفقد أيّاً منها..!

ويبقى لدينا تساؤل لا بد من إثباته، وهو أننا، ونحن نقرأ رواية موضوعها قضية العرب الكبرى - قضية فلسطين، أو رواية تورخ لحدث سياسي ممتد زمانياً ومكانياً جداً، ولحدث معقد تعقيداً عظيماً، أما كان من أسباب استكمال الصورة، فنياً، أن يشير مبدع "المخطوفون" إلى عنصر هام جداً، في قضية الصراع العربي الصهيوني، هو عنصر الدعم الخارجي الممثل بالغرب الاستعماري؟ فتلك الجماعة المعتدية، التي لها رموزها في الرواية، ما كان لها أن تتمكن مما تمكنت منه، لولا هذه المساندة التي نرى آثارها في كل فعل وكل حدث وكل قول سياسي، يصدر عن ظرف نعانيه في الواقع، ولكن الإشارة إليه في الرواية قد غيّبت تماماً...!

وإذا كان الحال - كما يقول الروائي الدكتور (عبد الرحمن منيف) - هي أن الأجيال القادمة لابد أن تقرأ التاريخ الذي نعيشه الآن وغداً، ليس من كتب التاريخ المصقولة، وإنما من روايات هذا الجيل والأجيال القادمة (الكاتب والمنفى ص ٤٣) إذا كانت هذه هي الحال، فإن تضمين المعادل الفني لمواقف الغرب الاستعماري في رواية توثيقية تاريخية يصبح ضرورة لا بد منها... فهل سيتحفا الكاتب (ناصر) في قابل الأيام بعمل فني آخر يحدثنا فيه، على نحو كامل